الجولة الثانية لشرق أفريقيا: تنزانيا والحبشة وكينيا

اسماعيل بن عتيق

تنزانيا أو تنجانيقا وزنجبار:

الحديث عن تنجانيقا لايكفى عن زنجبار البلد المسلم الجريح.. اتحدت تنجانيقا مع زنجبار فكانت تنزانيا.. وكانت زنجبار يحكمها العرب العمانيون باسم السلطنة العمانية، غير ان السياسة التحررية انتفضت حتى اعتبرت الحاكم العمانى مستعمرا، واعتبروه اجنبيا لايجوز له سلطان على الافريقيين.. فكانت الثورة.. وكان الاتحاد، ولكن الاسلام واللغة العربية، بل والتقاليد فى اللباس وغيره، ظل زنجباريا لايمكن ان يقال عنه إنه دخيل أو اجنبى او مستعمر «يامقلب القلوب» عقب الثورة وبعد التحرر من الغرب ومن العرب كما يقولون اتجهوا إلى سيد لايرحم صغيرا ولا يوقر كبيرا، إلى الشيوعية الروسية، فرموا بثقلهم فى احضانها، وخططت الشيوعية لنظام الحكم والاقتصاد، وامروهم بالسير عليه وتنفيذه، وامموا جميع الممتلكات، وحجروا على الحرية، فافقروا الغنى، وافسدوا الفقير، واذلوا الزعماء، وقمعوا كل طموح او تطلع للتقدم والنمو الاقتصادى، إلا ماترسمه لهم موسكو.

الشعب التنزانى وبالاخص الزنجبارى.. شعب مسالم.. ممتاز فى سلوكه واخلاقه وهدوء طبعه.. لاشراسة ولا فظاظة.. ولذا ظل يحكمه رجل واحد من الثورة، وسلبه اغلى ممتلكاته ومقوماته الضرورية.

أما النشاط الدينى والقيم الاسلامية، فهى على شفى جرف، واخشى ان تنهار مالم يتداركها الدعاة المخلصون.. فكما قيل، كاد الفقر ان يكون كفرا..

تسالمت الكنيسة مع الشيوعية، وامنت على جميع مصالحها، وطمانت الشيوعية على مخططاتها، فهى صنو الشيوعية وحليفتها.

لقد غطى نشاط التبشير كافة القطاعات التعليمية، والخدمات الصحية، والاجتماعية، وادخل فى رؤوس السياسيين انه جهة انسانية، لاعلاقة له بالسياسة ولا بالدين المتزمت، القائل بالجهاد او الحديث عن الاقتصاد او التحكم فى شئون المراة ودعوى تطبيق شرع جاء منذ قرون بائدة، الديانة المسيحية متطورة مع الزمن، تسالم ولاتحارب، وتعطى ولاتاخذ، هكذا الصورة المعروضة والوجه المشرق الوضاء والذى روجوه فى الصحافة والاذاعة ويتداوله الناس، الاسلام إن وجد اهله فهم غير قادرين على تمثيله والاعراب عن متطلباته ودواعى تمكينه، والتاريخ الاسلامى المسبوك بالفاظ المستشرقين، اثقل على المفكرين من المسلمين، وعجزوا عن تنقيته، فلذا ظل كما هو.. الطابع هو احترام الاسلام.. والاسلام الصامت، المؤدب، الذى لايشكو جوعا ولايفتقر إلى حاجة.. فيطلبها، وإن اخذ منه شىء، اخذ طرفه وهو قل وشكى إلى ربه لينقذه من غير استعداد ولا إرادة صادقة فى الطلب.

تقوم محاولات بجهود من غير التنزانيين بالتعاون مع الغيورين منهم على استئناف العمل الاسلامى الشامل الكامل.. ولكن الطريق طويل..

نشرت في مجلة الدعوة العدد (١٧٣) في ٥/٣/١٤٠٣هـ ص (٣٢-٣٣)

والخطى بطيئة.. إن التذمر السائد لمختلف الطبقات من الشيوعية وتحكمها فى الارادة الفردية، لهو أمل البائسين فى الانتفاضة إلى التخلص من عبودية الشرق، إلى وطنية تأخذ طريقها بنفسها وتختار هى بوحى من حاجتها ومطلباتها إلى الدستور الذى ترضاه، والاتجاه الذى تختاره من غير ان يفرض عليها بقوة الضغوط وممارسة الارهاب، ولكن متى؟ فى علم الله تعالى، فما شاء كان، وماشاء لم يكن، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

الحبشة :

وتدعى باثيوبيا بدل الحبشة، الاسم القديم، وفى أديس أبابا، ومعناها الزهرة المتفتحة.. كان تجوالى.. إذ من المحظور ان يتجاوز السائح مائة وخمسين كيلو مترا من العاصمة لظروف الحرب الناشبة بين الحبشة والصومال والاريتيريين.

وفى فندق اثيوبيا.. كان تطلعى لمن يحدثنى.. فلا ارى إلا صمتا مخيفا.. فتذكرت قول من قال: إن الشيوعية، تحرم الحديث مع الاجنبى وتعتبره جريمة يعاقب عليها المواطن، ولكن الشيوعية فى الحبشة مرنة، تقبل للزائر أن يتحدث ويقول ويسأل.. لانها فى مرحلة تمهيدية.. أو بمعنى أصح، شيوعية مهذبة، خاصة للتصدير، والرفقاء السوفيت، هم أولئك القوم، قاتلهم الله انى يؤفكون.

الاحباش يزعمون انهم من ذرية سليمان بن داود، واليمن والحبشة، كانتا مملكة واحدة، تدعى بمملكة سبأ.. والواقع يشهد بذلك، فهم يختلفون عن الزنوج السود فى صنعاء.. البشرة، ورقة الطبع، والجمال المزدوج من عنصرين - اليمنى والحبشى - وبين الحبشة واليمن تلاحم عجيب فى المصاهرة، لذا كان اللسان الشعبى لعامة الاثيوبيين، هو اللهجة اليمنية.

تأتى إلى مطعم فيقولون لك: إيه تشتهى.. تشا حاجة؟ فى الجامع الكبير لاديس أبابا والذى مكن الايطاليون المسلمين من بنائه، يزخر بمئات المصلين إن لم اقل الالوف، وخاصة يوم الجمعة.. وحدثنى الكثير بأن ظاهرة الاقبال على الصلاة ودور العبادة يتزايد كل يوم.. وقالوا إن الدولة تمنح الأراضى لدور العبادة والتعليم الاهلى.. وتشجع على الخدمات الانسانية.. ويطيب لى التحدث عن الحبشة وسلامتهم من الغش والغل والحقد.. ويعزى ذلك لجمال الطبيعة واعتدال المناخ وقلة الازدواجية مع شعوب العالم، وعدم تحكم الاستعمار فيها، إلا فترة قصيرة للايطاليين.

حاولت التعرف على النشاط المدرسى، فزرت مدارس أبادر العربية، ولا انسى مقابلة الأخت صفية محمد المشرفة على المدارس، خريجة المدرسة السلفية، البالغة من العمر ثمانية وثلاثين سنة، قالت وهى تحدثنى بقلب جريح: نحن نخدم الاسلام بقدر مانملك، وإذا كان الله أعطانا القوة، فالفضل لله وحده، ونحن لانطلب من احد، ولكن من يساعدنا لله نقبل مساعدته.. جاء فى العام الماضى رجل من ليبيا، ورأى وضعنا وقدم لنا مائة الف، بر ووعد ان يكون هذا المبلغ سنويا، ولكن مضى عام ونصف، ولم نتلق شيئا، ومن مدارس أبادر، إلى المدرسة العربية اليمنية، قابلت مديرها الذى نضج عقليا.. مضى له فى إدارة المدرسة قرابة ثلاثين عاما، يشكو هو الآخر عبث العابثين، وتدخل السلطات العربية فى شئون المدرسة، مما جعلها تضيع بين حانا ومانا.

فاليمن الشمالية تعرض عليها المنهج.. والجنوبى يرفض ذلك.. والجالية العربية فى الحبشة ذهبت ريحها.. فهى لاتقدر على تسييرها ماديا وادبيا..

رأيت عددا من المدرسين الوافدين من اليمن الجنوبى وكانهم دعاة فكر وسياسة، لاتعليم ولا توجيه ولاتربية دينية.. فالعزاء للمسلمين من السلطات العربية.. والله الهادى إلى سواء السبيل.

كينيا :

أما كينيا فهى قاعدة شرق افريقيا، سبق وأن كتبت عنها وقلت إنها ملتقى الاديان، ففيها اكثر من اثنى عشر دينا، تمارس كلها نشاطاتها، وتقدم انموذج معتقداتها وتقاليدها.. اذكر اننى دخلت معبدا للسيخ.. فقدموا لى شرابا وحلوى وطلبوا أن أضع الزهور على الصنم فرفضت وقلت متجاهلا كنت اظن هذا مسجد المسلمين..انا مسلم أعبد الله ولا نعتقد فى الأصنام، فقالوا لى هذا معبد السيخ ولكن نحن نحترم المسلمين فزعيمنا ذهب إلى مكة وشعارنا هو صورة الكعبة، فقلت زعيمكم أوقفكم على بوابة الطريق فعليكم أن تكملوا..

كان الحديث مع فتاة هندية باللغة الانجليزية، خشيت أن يدخل الشيطان بينى وبينها، فودعتها وانصرفت.. (نعوذ بالله من الشيطان وجنده).

وقد أعطت الحكومة الكينية معنى الديموقراطية فى موقفها مع الجنسيات المختلفة كما فتحت صدرها للمهاجرين من المسلمين المجاورين فى أوغندا والصومال والحبشة وغيرهم.. وتجددت علاقات ودية مع المملكة العربية السعودية.. إلا أن الحكومة نصرانية بالطبع.. أراد البابا أن يجعل كينيا مركزا للتبشير فعقد عدة مؤتمرات وخولته السلطة ذلك النفوذ.. إلا أن موجة اسلامية تخفى اسبابها تتحدى ذلك النفوذ بقوة

البقية ـ ص ٣٧ ـ

وقرأنا عبارات وجملا مركزة يعبربها اصحابها عن الحادهم وكفرهم كما قرأنا كتبا ورسائل ومقالات في هذا الصدد.

تلك لمحة عن هذا الانفصام المنكر بين الدين والعلم في اوروبا، وعن اهم ملابساته التاريخية والحضارية، نستطيع ان نقول مطمئنين بعد تأملها وتحليلها: ان هذا الفصل لم يكن اصيلا، اعني انه لم يبن على مقتضيات من العلم الحق او الدين الحق!! وبعبارة اخرى يمكن القول: ان الدين الحق لايحتوى دواعي تبعث على كراهية العلم ومحاربته، وكذلك العلم الحق!! ومن ثم فان الفصل الذي حدث كان نتيجة اسباب اخرى ـ كما عرفنا ـ خارجة عن دائرة العلم والدين معا.

هذا موقف الكنيسة من العلم، اما موقف الاسلام من (العلم)، بمعناه الواسع الشامل ـ وما ابعده، وما اكثرسعة مضمون او محتوى مصطلح العلم ـ ومن العلم التجريبي على وجه الخصوص، فان لهذا الحديث مكانا اخر سياتي ان شاء الله.

٢ـ الايمان اساس العلم

لابد وان نعرض لمفهوم العلم، ماهو؟ وبعيدا عن الصياغات الغامضة التي عرضت لهذه النقطة نقول: هو البحث عن طريق النظر الصحيح، عن السنن او الضوابط التي تحكم الظواهر عن خصائصها الفيزيائية وعن تحولاتها او تفاعلاتها الكيماوية .. وما يترتب على ذلك من اثار تقنية صناعية .. فالعلم هو البحث عن القوانين التي تحكم الظاهر .. والتكنولوجيا مرحلة تلي العلم بهذا المفهوم .. فهي توظيف واستثمار هذه السنن او الحقائق.

وان قيل: وما الذي يترتب على التفريق بين العلم وبين التقنية العلمية؟ يجاب على ذلك بان العلم لايكون الا كشفا عن سنن او ضوابط، وهذه السنن التي وضعها الله لضبط حركة ووجود واستمرارية الظواهر لاتوصف الا بالخيرية، لخيرية مصدرها، اما التقنية ـ التي هي توظيف هذه الكشوف العلمية في اغراض مختلفة ـ منها التي تكون خيرة نافعة اذا ما استخدمت لخير الانسان وازدهاره، وان استخدمت في غير ذلك فهي الشر الوبيل كما في استخدام الاسلحة الفاتكة وغير ذلك.

ونعود الى النقطة التي نحن بصدد بسطها، فنقول: ان المسلمة الاولى في حقل البحث العلمي، هي ان هذا الكون يقوم على النظام والانسجام والتناسق وعلى الوحدة والثبات، ويقوم كذلك على وجود الحكمة والقصد والغائية، وكل هذه الصفات لن تكون، ولايعقل ان تتاتى الا في ظل الايمان بوحدة المصدر ـ مصدر الكون ـ وعلم وارادة وحكمة وقصد هذا المصدر؛ اذ ان وحدة النظام تدعو الى القول بوحدة المنظم!!

ولو لم يكن هذا القدر من الايمان متوفرا في نفوس العلماء والباحثين، لما اقدموا على البحث والاستكشاف، ولاصبح البحث مستحيلا قطعا، والعالم او الباحث الذي ينكر هذا الموقف الايماني متناقض متهافت، لانه اذا لم يعتقد بنظام ووحدة الكون، فان الموقف الاخر هو الاعتباط والفوضى وعدم النظام... وكيف يجوز له ان يبحث عن ضوابط وسنن ونظام في هذه الحال...؟!

ولقد رأينا كبار العلماء الذين اثروا البحث العلمي ودفعوا مسيرته، قد اقروا بهذه الحقيقة، بل حرصوا على تسجيلها واذاعتها؛ حرصهم على تسجيل واذاعة نتائج بحوثهم ومكتشفاتهم، ولقد دونت كتب قيمة في هذه الناحية منها مثلا، كتاب (الله يتجلى في عصر العلم) ومنها كتاب (الانسان لايقوم وحده في هذا الكون) ومنها جملة اقوال طيبة لكبار العلماء امثال اسحق نيوتن واينشتاين وباستير وغيرهم.

وللحديث صلة ان شاء الله

حصاد الجولات (بقية)

إيمانها ويقينها بالله.. ومع هذا فان المبشرين يعملون على تنصيرهم بقوة الاغراء والدفع المادى.. ولم يستجب احد استجابة عملية عن اقتناع وحمية وانقياد، بل على العكس من ذلك، راى بعض القساوسة ان استغلال حاجة هؤلاء غير لائق انسانيا.

هكذا اتضح مكر الكنيسة وصيدها في الماء العكر، وليس هناك اصحاب دين يدعون لدينهم غير النصارى، بطوائفهم الثلاث، الكاثوليك، الارثوذكس، البروتستانت.. كما انه لايوجد دولة عربية او إسلامية تولى الدعوة اهتماما سوى حكومة المملكة العربية السعودية.. فقد فتحت لها مكتبا بجوار الجامع المركزى واجرت مرتبات على عدد من الدعاة والمدرسين وائمة المساجد.. وتلتزم الصمت الدائم في اداء رسالتها.. وقد يسال سائل عن معنى الدعوة في المحيط الافريقى غير العربى؟.. الجواب، الدعوة اعلان حق الله على خلقه ولمن اراد هدايته وتوفيقه ان يتعرف على هذا الاعلان بإجماله وتفصيله، فتكبير الله في الأذان وإعلان الشهادتين قاعدة الاسلام ومبناه الكل دعوة إلى الله والقائمون على تمثيل هذه الدعوة هم المسلمون بسلوكهم ومعاملتهم.

منطقة كمبالا منطقة عربية اسلامية بحتة، لايختلج شك لزائرها انها من بلاد اليمن او الحدود السواحلية للمملكة العربية السعودية، ولكن الذى يكدرها وجود افراد ادخل اباؤهم الاسلام في هذه البلاد وعملوا هم على إخراجه بسوء سلوكهم واستغلال تاريخهم المجيد.. المدارس العربية لاحصر لها.. غير ان ازمة المكان والدروس.. هى المشكلة القائمة لدى كثير من المدارس العربية والاسلامية.